الفصل الخامس

حجر الأساس

اعلموا ما شئتم أن تعلموا ... لن تؤجروا إلا بما عملتم

من خلال ما تم عرضه من ملامح التربية التي نشأ عليها صلاح الدين الأيوبي اتضحت بعض الأساليب التي من شأنها أن تعود بالفائدة على الشباب حاليا كما أفادت ذلك الشاب الصالح حتى أصبح بطلا مظفرا فيما بعد.

وباسترجاع المطلوب تنفيذه حتى الآن لكي تنهض الأمة من جديد، نبدأ بتحديد أسباب نجاحنا وفشلنا في أمور الحياة الدنيا والآخرة. وينبغي كذلك الإقبال على عمل، صغير أو كبير، يكون من شانه المساعدة في نهضة الأمة. وذلك بالإضافة إلى زيادة إيماننا ورضانا بقضاء الله وقدره ، خيره وشره.

وفى الواقع، فإن هذه المهام هي الأساس المطلوب تنفيذه عمليا، وليس الغرض منها مجرد قراءتها لزيادة الاطلاع. وحتى لو لم يستطع بعضنا أداءها بصفة متكاملة، فالمهم هو الشروع فيها وانجاز ما يمكن انجازه.

أم صلاح ... وصلاح الأم

ومن خلال استكمال الحديث عن الأسس التربوية التي خضع لها صلاح الدين منذ نعومة أظافره، نعرض أساليب التربية السليمة التي تؤدى إلى حسن تشكيل تفكير النشأ وضبط سلوكهم. ونتيجة للمتغيرات الكثيرة المصاحبة لعصرنا هذا،

فقد أصبح ما ننشده من تنشئة سوية وإعداد صحيح أمراً في غاية الصعوبة. ولذا يجدر بنا أن نأخذ العبرة مما كان حتى نحاكيه ونصل بأبنائنا إلى ما وصلت به أم صلاح الدين بابنها. لقد أدركت هذه الأم قيمة القصة التي تروى للأطفال وتأثيرها على تكوين شخصيتهم، ورغم المجهود المبذول طوال النهار والمسئوليات الملقاة على عاتقها، فكانت تحرص على الجلوس بجوار ابنها كل ليلة وتوفر له من وقتها لتروى له القصة التي تهدف من خلالها إلى تغذيته بالقيم والمبادئ السليمة. وما اشق هذا الأمر على أم زوجها غائب عن المنزل، سواء في أرض المعركة، أو مشغولا بهموم الأمة الإسلامية أو بعمله الذي يتكسب منه نفقات حياته. ومن هنا نلمس عن قرب أهمية الأم ودورها المحوري في تنشئة الطفل نشأة سليمة حيث إنها تحتك بابنها طوال فترات اليوم، على عكس الأب الذي لا يرى ابنه سوى لفترات قليلة ومتقطعة نظرا لتواجده بالعمل خارج المنزل. وإني أدعو الأمهات أن تتخذ من أم صلاح الدين مثالا يحتذي به في تربيتهن لأولادهن . والقدوة الحسنة في القائمات على التربية ترجع إلى عهد رسول الله ﷺ، فانظر كيف كانت زوجات الصحابة يجتهدن في تربية أبنائهن أثناء غياب أزواجهن في الغزوات والسرايا والفتوحات، حتى صار هؤلاء الأبناء من الصحابة الذين رضي الله تبارك وتعالى عنهم، أو تابعين ساروا على نفس النهج السليم. وكذلك يعظم دور المرأة في المجتمع بكونها زوجة صالحة وأم واعية، مصداقا لقول أحمد شوقي:

الأم مدرســـــة إذا أعـــــددتها أعـــددت شـــعباً طيـــب الأعـــراق

أبطال مسلمون حقيقيون ... وليس غربيون كرتون

وبالقطع فإن رواية القصص للأطفال كأسلوب تربوي يهدف إلى غرس القيم يعتمد في الأساس على الشخصيات النموذجية التي تجسد المثالية في تلك القصص. ولذلك كانت أم صلاح الدين تروى له عن عماد الدين زنكي وبطولاته وفتوحاته.

كما كانت تقص عليه سير الخلفاء العباسيين الذين جاهدوا في سبيل الله من أمثال هارون الرشيد والمعتصم وغيرهما. وشملت حكاياتها ورواياتها الكثير من أبطال الإسلام مثل معاوية بن أبى سفيان، وقتيبة بن مسلم الباهلى، وعقبة بن نافع، وطارق بن زياد، وموسى بن نصير. وهكذا، من خلال القصة التي ترويها الأم بأسلوب مبسط، كانت تربط عقلية ابنها بقيم الإسلام المختلفة. أما الآن، فما هي الشخصيات التي ارتبط بها أطفالنا؟ هل هي باتمان أم رامبو... تلك الشخصيات الوهمية التي يصطنعها الغرب الأوروبي والأميركي؟ هل معقول أن نترك الماضي الثرى التقى ونلتفت إلى الرومي الوهمي الشقي؟ لماذا لا نربط أطفالنا بالأبطال المسلمين؟

على أثر الحكايات التي روتها الأم لابنها عن البطولات التي حققها أمراء بني أرطق، ارتبطت نفسية صلاح الدين بهم وتعلم منهم الكثير. وقد ظل أمراء هذه الإمارة يقاتلون الصليبيين لمدة ثلاثين عاما حتى سلّموا الراية إلى عماد الدين زنكي. كان سقمان بن أرطق أحد هؤلاء الأمراء الذين يستحقون أن ينظر إليهم بكل احترام. وكان هذا الأمير قد بلغ السابعة والستين من عمره وهو مازال على ظهر الجواد. كما كان قد أصيب بمرض أنهك صحته، ومع ذلك كان يقود جنده في الحروب القائمة بين إمارته وإمارة الرها. ورغم أن كل المحيطين به كانوا يشفقون عليه وهو في تلك الحال من المرض وكبر السن والتمسوا له الأعذار الشرعية، إلا أنه رد عليهم قبل موته بيوم واحد بكلمته الشهيرة: "والله لا يراني ربى متثاقلا عن الجهاد في سبيله. ألم تسمعوا قوله تعالى :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ﴾ [التوبة:٣٨]

﴿انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [التوبة]

ولا شك أن رجلا بذلك القدر من تحرى الإخلاص لله عز وجل وباستشهاده في آخر معركة خاضها، لا بد له أن يعلق بذاكرة صلاح الدين. فمهما بلغ الإنسان المخلص من تعب أو كبر سن، لا يمثل كل ذلك حائلا أمام أدائه فريضة افترضها المولى تبارك وتعالى عليه. ولكن عند مقارنة ذلك التفاني مع ما يحدث اليوم من عدم الالتزام مثلا بصلاة الفجر في موعدها في المسجد، ولاسيما أن الأعذار كلها واهية، فلا شك أن يزداد تقديرنا لمن تحرى تقوى الله وسعى لنيل رضاه.

ولا نغفل كذلك تضحيات بقية أمراء بني أرطق ومنهم ايلى غازى، شقيق سقمان، والذي ظل يكافح من أجل وقف المد الصليبي إلى أن استشهد وهو لم يتعد الثامنة والعشرين من عمره.

وكان من ضمن الأمراء الذين ذكرتهم الأم لصلاح الدين الأمير بلك بن بهران الذي أصبح أمل المسلمين في التصدي للصليبيين وتحرير الإمارات كلها. ولكن، كما قتل عماد الدين زنكي نتيجة الغدر والخيانة، قتل أيضا بلك بن بهران غدرا وخيانة. ومن غير قادة الصليبيين كانت له المصلحة في التخلص من بلك بن بهران الذي كشفهم وفضحهم أمام شعوبهم؟

ويتعلم صلاح الدين من هذا المثال مدى بشاعة الخيانة وأثرها السلبي البالغ على الأمة، مما دعاه إلى توخي الحذر والحرص منها بقية حياته. وكذلك، فقد استخلص صلاح الدين من سماعه لقصص هؤلاء الأبطال أن الحياة تعد رخيصة عند العمل في سبيل الله. وكانت أم صلاح الدين تبين له أن الشهيد ليس له عند الله سبحانه وتعالى من جزاء سوى الجنة، وفرح وسعادة دائمين، وقرب من المولى العلى

القدير والنظر إلى وجهه الكريم، ومغفرة الذنوب. ولنا أن نتخيل مدى السكينة والطمأنينة لله في نفسية الطفل وهو يستمع إلى هذه التوجهات الدينية!

"الصدقة تطفئ غضب الرحمن"(١)

ومن المواقف التربوية لأم صلاح الدين مع ابنها موقف غرست من خلاله في قلب ولدها الرغبة في نيل البر. فعندما تقدم له أمه الإفطار، يدور بينهما الحوار التالي:

"(الابن) : ما شاء الله، كم أحب اللحم مطهوا بهذه الطريقة ... طريقتك الخاصة يا أمي!

(الأم) : هل تحبه؟

(الابن) : نعم... باسم الله.

(الأم) : لحظة يا بني، هذا ليس طعامنا، سنتصدق به.

(الابن) : أوليس لدينا طعام غيره نتصدق به يا أماه؟

(الأم): بل لدينا الكثير بفضل الله، لكننا نحب هذا الطعام بعينه أكثر من غيره وتشتهيه أنفسنا الآن وهو أمامنا. لذا، سنتصدق به... فإذا حرمنا منه، ذقنا الحرمان الذي يكابده الفقير. وإذا رضينا، نلنا البر. ألا تحفظ قول الله عز وجل:

﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢].

وهكذا فقد غرست الأم حب نيل البر في نفسية ابنها من خلال تجربة عملية للتربية على المنهج الإسلامي، وعودته منذ الصغر على الإيثار والتصدق، وهو ما ما جعل صلاح الدين الأيوبي مغدقا بالصدقات حتى أن المستشرقين يأخذون على

(١) أخرجه مسلم.

صلاح الدين كثرة تصدقه على شعوب المسلمين في مصر والشام ومناطق أخرى. وكلما امتلأت خزائن بيت مال المسلمين أخذ في توزيع الأموال على الفقراء حتى تفرغ الخزائن من كل ما كان فيها.

وعليه فإن أي سلوك يتعلمه الطفل في الصغر يحفر بداخله مصداقا للمثل الشائع:"التعليم في الصغر كالنقش على الحجر". ولا تقوم بهذه الوظيفة السامية إلا أم عندها وعى ودراية بأسلوب متابعة الطفل وتغذيته بمعاني إيمانية، وتربوية، وسلوكية كثيرة.

"كلكم راع وكل راع مسئول عن رعيته"(١)

تتضح القيمة الكبيرة للتربية السليمة من خلال حديث شريف أخرجه النسائي يقول فيه رسول الله ﷺ:**"من ربى وليدا حتى يقول لا إله إلا الله، لم يعذبه الله"**(أخرجه النسائي). وهذا يعنى أن على الأب والأم أن يجتهدا لتنشئة شاب أو فتاة على تقوى الله سبحانه وتعالى، فيكون ذلك سببا لمغفرة ذنوبهما وعتقهما من النار. ويقول الله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

[الأنفال].

إذن، وفقا للآية الكريمة، فإن الطفل يعد أمانة وقد خلق على الفطرة يوم سلمه الله العلى القدير لأبيه وأمه. والمطلوب من الأب والأم أن يحسنا تشكيل أطفالهما، فلا يعقل مثلا أن يعطيك شخصا مبلغا من المال على سبيل الأمانة ثم ترده إليه ناقصا؟ بالتأكيد هذا لا يجوز وإلا تكون قد خنت الأمانة. كذلك الأطفال، فهم

(١) أخرجه مسلم.

الأمل في النهوض بالأمة من جديد. ومن ثم تنشأ حاجتنا إلى استيعاب المفهوم الصحيح للتربية. يقول الله في كتابه الكريم:

﴿وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

وتوضح لنا الآية القرآنية ضرورة أن يطلب كل منا الرحمة لأبويه حيث إنهما ربياه عندما كان صغيرا، بما في التربية من مشقة وتحمل مسئولية تعليم الأطفال ما يرضى الله وما يغضبه (والعياذ بالله)، والصواب والخطأ، والحلال والحرام، ، والسلوك السوي والسلوك المعيب. والعكس صحيح، إن لم يعتن الأبوان بحسن تنشئة أولادهما، فكيف يستحقان إذن أن يتضرع أبناؤهما لله تعالى بالدعاء لهما بالرحمة؟ ولذلك يقول رسول الله ﷺ :"**علموا أولادكم البر إن شئتم انتزعتم العقوق منهم**" (أخرجه الطبراني). ويوضح الرسول الكريم للأبوين أنهما بتربية أبنائهما على البر، سوف يكونان أول من يستفيد من بر أولادهما لهما. وبالتالي فالمسئولية الملقاة على عاتق الأب والأم كبيرة وينبغي حسن إتيانها حتى تعم الفائدة على الأمة بأسرها.

وقد بدأ صلاح الدين حفظ القرآن الكريم وهو فى التاسعة من عمره على يد الإمامين النيسابورى وابن عصرون. وعند غياب أستاذه، كانت أم صلاح الدين تقوم هي بالتدريس له، رغم المشاغل الأخرى الملقاة على عاتقها. وفى الحادية عشر أتم صلاح الدين حفظ آيات الذكر الحكيم نتيجة لمتابعة الأم لابنها. وعليه، فإن وجود الأب والأم بجوار أبنائهما ضروري حيث إنهما يشكلان السلوك العام لأطفالهما.

معايير الشخصية السوية

إذا أراد الأب أو الأم تقييم الشخصية السوية عند الابن فيكون ذلك من خلال خمس نقاط محددة. والتفكير الإيجابي يأتي في **طليعة الصفات** التي تتيح للنشء حسن التصرف سواء تواجدوا مع آخرين أو تواجدوا بمفردهم، وذلك حتى يتعودوا على تحمل المسئولية. ولذلك، فقد استطاع صلاح الدين وهو في الخامسة عشر من عمره أن ينقذ قافلة عصمت الدين خاتون، زوجة نور الدين محمود، عند تعرض اللصوص لها، وأن يصل بها إلى الشام بسلام. **والمعيار الثاني** للتقييم يكمن في اهتمامات الطفل. وعلى سبيل المثال، ما هي البرامج التليفزيونية التي تستهويه؟ ما هي الصفحة التي يسرع الابن إلى قراءتها بالجريدة؟ ما هي المواضيع التي يتحدث فيها مع من هم في نفس عمره؟ فيم يقضي وقته؟ وهكذا يتضح إن كانت اهتماماته تقف عند حد الترفيه أم أن هناك انتقالا نوعيا يؤدي إلى اهتمامه بالجوانب الحياتية المهمة. ويكمن **المقياس الثالث** في ما لدى الطفل من مهارات حتى يتسنى مساعدته على تنميتها. فإذا أهملت المهارات، حرم الطفل من التفوق في مجال يستطيع التميز من خلاله عن غيره من الأطفال. **ورابعا**، ينبغي تقييم علاقات الأبوين بالابن للتأكد أنها تسير في الاتجاه الصحيح من ثواب وعقاب بدلا من أن تكون مجرد تسلط مطلق من الأبوين أو تعبير عن مشاعر فياضة. وأخيرا وليس آخرا، للتعرف على قدوات الطفل يكفي ملاحظة الشخصيات الرئيسية محور حديثه واهتماماته.

فإذا جاءت تلك المعايير بنتائج إيجابية، يطمئن الأبوان لحسن تربيتهما لأبنائهما وأصبح من حقهما أن يطمحا في إخراج عضو مؤثر في المجتمع. ولا ينبغي الاعتقاد بأن تربية النشء يقتصر على رعايتهم من حيث المأكل والملبس والتنزه والإنفاق عليهم، إنما تقع كل تلك الأمور تحت بند الرعاية وليس التربية. **والتربية هي عبارة عن إضافة لجانب إيجابي أو محو لعنصر سلبي.**

وإذا انتقلنا إلى مرحلة أبعد من مراحل التربية السليمة للطفل، إلا وهى قدرته على القيادة، وجب إذن التأكد من وجود أربع صفات به: الصفة الأولى هي الذكاء. وبطبيعة الحال فإن كل الآباء والأمهات يرون في ولدهم طفلا ذكيا، ولكن المحك الحقيقي يكون من خلال اختبار يبين قدرات الطفل. وتتجلى الصفات القيادية الأخرى في المبادرة والجرأة والجدية.

والغرض من عرض جملة هذه المقومات الإيجابية هو حث أولياء الأمور على التثقف والإطلاع على كتب التربية. وذلك كله يرجع إلى حقيقة أن السبع سنين الأولى من حياة الطفل هي الأهم على الإطلاق في حياة أبنائنا. ولذا حرص والد ووالدة صلاح الدين على تنظيم وقته ما بين تحفيظ القرآن الكريم وتعليم الأحاديث النبوية الشريفة وحضوره لمجالس والده من جانب، وممارسة الفروسية ولعب الكرة من جانب آخر، هذا بالإضافة إلى أوقات الأكل والاستماع إلى القصة التربوية والنوم.

"اعبد الله كأنك تراه... فإن لم تكن تراه فإنه يراك"[1]

من خلال أحد المواقف يتضح أن نجم الدين أيوب كان موفقا في غرس المفاهيم الدينية من تقوى وتحرى تقوى الله عز وجل في نفسية ابنه. جاءت أم صلاح الدين ذات يوم تستأذن زوجها في السماح لابنهما يوسف بالتغيب عن صلاة الجماعة بالمسجد ليومين أو ثلاثة نظرا لمرضه وارتفاع درجة حرارته، وكان الغلام ما زال في العاشرة أو الحادية عشر من عمره. وإذا كانت الأم قد استأذنت الأب في ذلك الأمر رغم مسئولياته المتعددة، فهذا دليل على أهمية متابعة انتظام الأولاد على الصلاة بالمسجد. وفعلا أذن نجم الدين لصلاح الدين أن يرتاح مدة مرضه بالمنزل. وبعد أيام قليلة، وعند عودته إلى المنزل، وجد الأب ابنه يجرى ويلعب مع الأطفال فأدرك

(١) رواه مسلم.

أن الصبي قد شفى من مرضه. وفى فجر اليوم التالي، انتظر الأب حضور ابنه بالمسجد لأداء الفريضة، ولكن صلاح الدين لم يحضر، فهرول نجم الدين إلى المنزل ودخل غرفة صلاح الدين ماسكا عصا في يده ودار بين الأب والابن الحوار التالي:

"(الأب) : قم يا بني فالصلاة حاضرة.

(الابن) : سأقوم للصلاة يا والدي.

(الأب) : تمهل يا بني، أخفت من العصا أم من ربك؟ حدد يا بني!".

وبذلك يكون الأب قد علم ابنه أن الخشية إنما تكون من الله عز وجل الذي بيده مقادير الأمور كلها. وعلى هذا الأساس لا بد أن تكون تصرفات المسلم وهو في منأى عن نظر الآخرين على نفس الأسلوب والنهج الذي هو عليه أمام الناس، وذلك لأن الله السميع العليم علينا رقيب. وفى الواقع، فإن تعلم تحرى تقوى الله يبدأ من الصغر كما يتعلم الطفل الكلمات البسيطة.

كان أحد السلف الصالح يعلم ابن أخته وهو في السابعة من عمره أن يردد عدة مرات قبل نومه أن الله يراه وينظر إليه، حتى غرست تلك الكلمات في نفسية الصبي. وعندما وصل الولد إلى الحادية عشر، سأله خاله: "إذا كنت على يقين بأن الله سبحانه وتعالى يراك، فكيف تجرؤ على معصيته وعلى إغضابه؟".

تقييم الذات وإصلاح العلات

وحتى تعود مثل تلك القيم إلى مجتمعنا، ينبغي أن نراجع أنفسنا، ففي أحيان كثيرة نفعل عكس ما نقول. وبالتالي ينعكس ذلك على الأبناء الذين يسمعون الأب أو الأم يتحدثون عن الأمانة ثم يكذبون ولا يوفون بالوعد. ولذلك لابد من تصفح الكتب الخاصة بالتربية ونلزم أنفسنا بما فيها من منهج قويم نسير نحن عليه ونعلمه لأبنائنا.

ولا مانع من إجراء استفسار مبدئي مع النفس نقيم فيه المعايير الخمسة السابق ذكرها للشخصية السوية، ولكن هذه المرة نختبر بها ذاتنا. ولسوف تحدد نتائج هذه المعايير إذا ما كان ولى الأمر مؤهلا للقيام بدوره التربوي أم لا. وبداية، فليراجع كل منا إيجابيته في التصرف ورد الفعل، فهل فعلا لكل منا الثوابت التي يتمسك بها مهما تعرض لضغوط؟ ثم يتم إلقاء الضوء على الاهتمامات، لأن ما يراه الطفل مقبلين عليه ومشغولين به سيكون لافتا لنظره وربما أقبل عليه هو الآخر. ومن المهم كذلك عمل وقفة مع الذات لإعادة اكتشاف المهارات الشخصية التي تميز الشخص عن غيره، والإقبال على تنميتها بما يعود بالفائدة على الذات وعلى الآخرين. وفى مجال المعاملات، هل لدى الفرد منا القدرة على التواصل مع الآخرين وإقامة علاقات سليمة معهم؟ وفيما يخص إعجابنا واتباعنا لشخصية شائعة أو مميزة، من هي تلك الشخصية التي يعتبرها الإنسان قدوة له في أفكاره وتصرفاته؟ وهل هذه القدوة صالحة وتعتبر مثالا يحتذي به عند السعي للفوز بالجنة،أم هي قدوة في السلوك المعيب الذي يغمر صاحبه في حب الدنيا وينسيه الآخرة؟

فالمطلوب إذن هو إجراء هذا النوع من الاستقراء للذات من خلال وقفة صادقة مع النفس إذا كنا نسعى بالفعل لتربية جيل يخرج منه من يكون صلاحا لدينه وليس مأخوذا عليه.

***

obeikandl.com